الفصل الثانى

المستوطنات اليهودية ..
قصة لها تاريخ طويل

المستوطنات اليهودية[1]

لها قصة عمرها ١٦٧ عاما

منذ ١٦٧ سنة – وعلى وجه التحديد فى عام ١٨٣٤ – ظهرت أول دعوة لإقامة مستوطنات يهودية فى فلسطين بالمفهوم الحالى لفكرة المستوطنات .

وصاحب الدعوة إلى إقامة هذه المستوطنات هو نفسه أول من دعا إلى الحركة الصهيونية بمعناها السياسى الحديث :

هذا الرجل لم يكن هيرتسل ولا بنسكر ولا أيا من فلاسفة الدعوة الصهيونية الذين تزخر بأسمائهم مئات الكتب – وربما الآلاف التى وضعت عن إسرائيل والصهيونية ؛ وإنما كان حاخاما مغمورا عاش طول حياته منبوذا من اليهود الذين اعتبروه «مخرفا» ، ومات منذ أكثر من مائة عام بعد أن طواه النسيان ! ولم يبدأ اليهود فى إحياء كتاباته وإعادة تقويمها إلا فى عام ١٩٤٥ : أى قبل ثلاث سنوات فقط من قيام إسرائيل !

(١) المستوطنات اليهودية فى الفكر الصهيونى د. حسن فؤاد .

هذا الحاخام المغمور المنسى المنبوذ يعتبرونه الآن فى إسرائيل أول «نبى» للصهيونية!

اسمه : « يهودا الكالاى » ولد وعاش ومات بمدينة سيراييفو التى أصبحت الآن عاصمة جمهورية الصرب إحدى جمهوريات يوجوسلافيا ، وقد جاء مولده فى أواخر القرن الثامن عشر عندما كانت بلاد الصرب جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ، وشهد فى شبابه حركة القومية النامية بين أبناء الصرب الذين كانوا ينادون بالسيادة السياسية والتخلص من الاستعمار العثمانى ؛ ومن ثم نشأت لديه فكرة «القومية اليهودية» :

إذا كانت هناك قومية صربية فما الذى يمنع أن تكون هناك قومية يهودية ؟ هكذا كان تصوره !

ومن الثابت أن الحاخام (الكالاى) رحل فى صباه إلى القدس حيث أمضى هناك عدة سنوات اختلط خلالها باليهود المتدينين الذين لم يكن لهم مطمح إلى الإقامة فى أرض فلسطين غير أن يتعبدوا حول الأماكن المقدسة اليهودية ، ثم يموتوا فوق الأرض المقدسة ويدفنوا فى ترابها !

وفى عام ١٨٢٥ عاد إلى الصرب لكى يتولى منصب حاخام عاصمتها «سملين» التى لا تبعد كثيراً عن حدود اليونان ، ورأى كيف انتصر اليونانيون فى حربهم القومية من أجل الاستقلال ؟

فنمى إلى ذهنه أن القومية اليهودية لن تتحقق أيضاً إلا عن طريق الحرب !

* * *

أما قبل ظهور هذا الحاخام فقد ظل اليهود طوال نحو ألفى سنة (منذ السبى الرومانى فى عام ٧٠ ميلادية) يتجهون فى صلواتهم إلى القدس ، ويحلمون بالعودة إليها مؤمنين بأن هذه العودة ستحقق بمعجزة إلهية عن طريق «مسيح جديد» يظهر فى «آخر الأيام» ويقودهم إلى وطن الأجداد لكى يعيشوا هناك فى سلام تام « حيث يتجاور الذئب والحمل ! وحيث تفيض الأرض لبنا وعسلا ! » .

فالأمر إذن لم يكن يخرج عن نطاق الصلوات والأحلام ؛ كما أن صورة العودة كانت تتخذ شكل معجزة من السماء لايد فيها للبشر ! .

واليهود يرون أنهم أول من دعا إلى التوحيد (ابتداء من سيدنا إبراهيم عليه السلام) . وبناء على ذلك فهم يؤمنون بأن هناك حكمة إلهية من تشتيتهم فى الأرض : وهى أن ربهم أراد لهم أن يكونوا بمثابة «المصابيح» أو «الفنارات» التى تهدى سائر البشر ! ولا ينبغى أن تتخذ هذه «الهداية» شكل التبشير بالديانة اليهودية أو دعوة غير اليهود «الجوييم» إلى اعتناقها ؛ لأن اليهودية دين خاص بنسل

سيدنا يعقوب أو إسرائيل ، ولأن اليهود يجب أن يظلوا محصورين في نطاق الاثنتي عشرة قبيلة التي أنجبها الأبناء الاثنا عشر لسيدنا يعقوب ، هكذا يقولون !

فالديانة اليهودية في أساسها ترى أن «الرب» هو الذي أراد لليهود أن يتشتتوا في الأرض؛ لكي يقوموا بمهمة دينية واجتماعية، وما دام ربهم هو الذي أراد لهم القيام بهذه المهمة فإنه وحده الذي يملك إنهاء مهمتهم وإعادتهم إلى أرض «المعاد» ! وهو وحده الذي يختار توقيت هذه «العودة» وكيفيتها وإنه ليس عليهم أن يختاروا أو يلتمسوا هذه العودة – بأية وسيلة – من تلقاء أنفسهم !

على هذا النحو ظل اليهود يؤمنون حتى ثلاثينيات القرن الماضي عندما ظهرت أول دعوة إلى «القومية اليهودية» أو «الصهيونية» نسبة إلى جبل صهيون بالقدس .

وكان أول داعية إلى الصهيونية – كما ذكرنا – هو الحاخام «يهودا الكالاي» فهو الذي أصدر «فتوى» بأنه يجب على اليهود أن يعملوا من أجل العودة ، وبأن هذا العمل من جانبهم لا يتعارض هو والمبدأ الديني الذي يقرر أن «العودة» ستتحقق على يد مسيح جديد بإرادة إلهية ! وكانت وجهة نظره في ذلك أنه يتعين على اليهود أن «يساعدوا أنفسهم» في تحقيق المعجزة الإلهية لهم ، وأن

هذه «المساعدة لأنفسهم» هى التمهيد لظهور المسيح الجديد ؛ ومن ثم فهى لا تمثل خروجا على إرادة ربهم !

وقد بدأ الحاخام (الكالاى) أولى كتاباته فى الدعوة إلى استيطان فلسطين فى عام ١٨٣٤ حيث أصدر كتيبا بعنوان «اسمعوا يا بنى إسرائيل ! « قال فيه :

إن التمهيد الضرورى للخلاص و «العودة» إنما هو إقامة مستوطنات يهودية على أرض فلسطين !

ولم يكد يظهر هذا الكتيب حتى اصطدم صاحبه واليهود المتدينون الذين يؤمنون بأن الخلاص لن يكون بيدهم ، وإنما بيد مسيح جديد ينفذ إرادة «الرب» .

ودخل الحاخام (الكالاى) فى مساجلات طويلة مع هؤلاء المتدينين ، ولم يجد بأسا من الرجوع إلى أسطورة يهودية قديمة مجهولة الأصل تقول : إن أيام ظهور المسيح ستسبقها حروب يقود اليهود خلالها أحد أبناء سيدنا يوسف ، وإن هذا الابن سيكون هو المسيح الأول ، ومن بعده يأتى المسيح الحقيقى !

وساعده فى ذلك الوقت أن وقع حادث شهير فى عام ١٨٤٠ عندما وجهت إلى اليهود فى دمشق تهمة قتل صبى مسيحى واستخدام دمه فى صنع الخبز غير المخمر الذى يتناولونه فى عيد

الفصح ! وأحدث هذا الاتهام صدى كبيراً بين اليهود فى أوربا ، وعلى الإثر أخذ (الكالاى) يردد أن الوسيلة الفريدة لوقف مثل هذه الاتهامات ولضمان أمن اليهود وحريتهم هى «أن يعيشوا حياتهم الخاصة بهم فى أرض أجدادهم» !

وتعددت كتابات (الكالاى) التى حاول فيها أن يشرح برنامجا للخلاص ، ووجه الكثير من هذه الكتابات إلى كبار الشخصيات اليهودية فى العالم الغربى من أمثال المليونير الإنجليزى موسى مونتفيورى والسياسى الفرنسى أدولف كرميو ، لأنه كان يعلم أن تحقيق برامجه لا ينجح بدون أموال اليهود ونفوذهم السياسى !

وكانت برامج (الكالاى) تتضمن : شراء أراضى فلسطينية من السلطان التركى ، وإقامة «تجمع كبير» لجميع يهود العالم ، وإنشاء صندوق قومى لشراء الأرضى ، وصندوق آخر لجباية نسبة محددة من دخل كل يهودى ، وطرح سندات للحصول على قرض قومى.

وقد ظهرت هذه الأفكار نفسها فى البرنامج الذى وضعه «تيودور هيرتزل» فيما بعد ، ونفذتها الحركة الصهيونية بالفعل فى مراحلها التالية .

بل إن «سيمون هيرتزل» جد «تيودور هيرتزل» أصبح واحدا من أتباع (الكالاى) والمعجبين القلائل به فى ذلك الوقت .

ومن بين معاصرى (الكالاى) حاخام آخر فى بولندا اسمه (زفى هيرش كاليسكر) - وكانت بولندا أيضاً تمر بمرحلة صراع قومى عنيف فى سبيل استرداد قوميتها وسيادتها السياسية بعد تقسيمها للمرة الثانية فى عام ١٧٩٣ بين بروسيا وروسيا القيصرية، وهذا أيضاً ما أوحى إلى كاليسكر بفكرة «القومية اليهودية» !

كذلك فإن (كاليسكر) عاصر فى بداية حياته حركة الإصلاح الدينى التى مرت بها الديانة اليهودية والتى كانت تدعو إلى التخلى عن الكثير من المعتقدات والطقوس الموروثة .

وظهرت أول دعوة لكاليسكر إلى الصهيونية فى خطاب بعث به عام ١٨٣٦ إلى عميدة فرع أسرة روتشيلد فى برلين ، حيث قال فيه :

« إن بداية الخلاص ستجىء عن طريق الجهد البشرى ، وإقناع حكومات العالم لتجميع شتات بنى إسرائيل فى الأرض المقدسة » .

فهو هنا لا يكتفى بطلب « مساعدة اليهود لأنفسهم فى العودة» وإنما يطلب أيضاً مساعدة حكومات الدول المختلفة .

ومن جهة أخرى فقد ساهم بجهد عملية فى إحدى الخطوات الأولى لمراحل الاستحواذ على أرض فلسطين ، وذلك عندما دفع منظمة «التحالف الإسرائيلى العالمى» (وهى المنظمة التى أنشئت فى فرنسا عام ١٨٦٠ للدفاع عن حقوق اليهود دوليا) إلى إقامة المدرسة الزراعية فى يافا عام ١٨٧٠ من أجل إعداد الأفواج الأولى من المهاجرين للعمل فى الزراعة، ومن ثم للارتباط بالأرض!

والجدير بالذكر أن هذا العمل أثار عليه ثائرة اليهود المتدينين الذين كانوا قد استقروا فى أرض فلسطين من أجل العبادة ، فقالوا : إن الاشتغال بالزراعة سيصرف اليهود عن العبادة ، وسيؤدى إلى منازعات وصراعات بين الوافدين الجدد وأصحاب الأرض الأصليين؛ مما لا يتفق مع الديانة اليهودية ورؤياها للخلاص والعودة !

وأهم كتاب أصدره (كاليسكر) هو «البحث عن صهيون» عام ١٨٦٢ ، وفيه يقول :

« عندما تتحقق العودة بوسائلنا الأرضية فإن أشعة الخلاص السماوية ستظهر بالتدريج ! » .

وفى العام نفسه صدر كتاب آخر بعنوان « روما والقدس » .

ولم يكن المؤلف هذه المرة حاخام ، وإنما فيلسوفا اشتراكيا هو «موسى هيس» الذى عمل فترة مع «كارل ماركس» فى الصحيفة التى كان يصدرها فى ألمانيا واسمها «راينيشه تسايتونج» كما شارك «ماركس وإنجلز» فى إصدار كتابين من كتب التحليل النقدى للأوضاع السائدة فى ألمانيا فى ذلك الوقت ، كذلك كان له دور كبير فى الثورة الألمانية عام ١٨٤٨ إلى حد أن صدر عليه حكم بالإعدام !

وبعد ذلك اختلف هو وماركس وإنجلز وعارض «المانفستو الشيوعى» عند إصداره ونادى «بالاشتراكية القومية» ثم استحوذت عليه فكرة القومية اليهودية ؟ ومن ثم تحول إلى الدعوة الصهيونية التى صاغ كل آرائه بشأنها فى كتاب «روما والقدس» ، وفيه يناقش قضايا الحرية والعدالة الاجتماعية والتقدمية ، ويحاول أن ينسبها إلى الفكر الصهيونى !

ويسترعى النظر هنا أن الدعوة الصهيونية الاستيطانية ظهرت أول ما ظهرت فى أوربا ، وأن أشد المعارضين لها كانوا يهود فلسطين واليهود المتدينين عموما !.

كما يسترعى النظر أن توقيت ظهور الدعوة الصهيونية قد جاء خلال فترة نهوض القوميات عموما فى القارة الأوربية فى أواسط

القرن التاسع عشر . ففى ذلك الوقت كانت تحتدم دعوات القومية فى ألمانيا وإيطاليا بالإضافة إلى البلدان الأخرى التى سبق ذكرها وهى الصرب واليونان وبولندا .

ولم يكن ذلك كله من قبيل المصادفة ؛ فإن فكرة «القومية اليهودية» التى كانت فى ذلك الوقت فكرة طارئة تماماً على التاريخ اليهودى ، وليس لها أى مقومات قبل عصر نهوض القوميات الأوربية – هذه الفكرة أرادت أن تركب الموجة العامة لنهوض القوميات فى أوربا !

غير أن الصهيونية أو «القومية اليهودية» كانت مختلفة تماما عن الدعوات القومية لتلك الفترة : فالقوميات التى ظهرت آنئذ كانت تقوم على أساس النضال فى سبيل السيادة السياسية على أرض قومية تقف عليها بالفعل والاستناد إلى لغة قومية تتداولها بالفعل ، أما الصهيونية – عند قيامها – فكانت بلا أرض ولا لغة متداولة ، ولأنها بلا أرض فقد سيطرت عليها منذ البداية فكرة «الاستيطان» أو «إقامة المستوطنات» .

فالدعوة الصهيونية لم تنبث من أرض فلسطين ، وإنما من شرقى أوروبا ، وبرغم أنه كانت تعيش فى ذلك الوقت مجموعات من اليهود المتدينين فى فلسطين فإن هذه المجموعات لم تخطر لها

قط فكرة القومية هذه ! بل إنها قاومتها بشدة ، كما قاومت الدعوة إلى إقامة «مستوطنات» يهودية فى فلسطين كما قدمنا !

ومن جهة أخرى فإن اللغة العبرية – التى سعت الصهيونية إلى اتخاذها لغة رسمية فى إسرائيل – لم تكن متداولة عند ظهور الصهيونية : بمعنى أنها لم تكن لغة حية ، وإنما كان يقتصر استخدامها على الصلوات اليهودية ، ولا يكاد يلم بها إلا كبار رجال الدين اليهود !

وعندما أراد بعض اليهود «فى المنفى» أن تكون لهم لغة خاصة بهم يتميزون بها من أهل البلد الذين يقيمون فيه – لم يختاروا اللغة العبرية ، وإنما استخدموا لغة «اليديش» فى ألمانيا ومعظم دول شرقى أوربا ، ولغة «اللادينو» فى إسبانيا وبعض مناطق شمالى أفريقيا !

وبرغم أن هاتين اللغتين تكتبان بحروف عبرية ، وتستعينات ببعض الكلمات العبرية – فإنهما كانتا فى أساسهما من اللغات الأوربية :

فاليديش فى أساسها هى اللغة الألمانية ، واللادينو فى أساسها هى اللغة الإسبانية بل إنه حتى عند إعادة إحياء اللغة العبرية مع تقدم الدعوة الصهيونية احتاج الأمر إلى جهود خاصة (لتبسيط) هذه اللغة القديمة ، حتى يمكن تداولها كلغة عصرية ، لغة خاصة

بالمستوطنات تكون أقرب إلى «اللغز» الذى لا يفهمه إلا أهالى المستوطنات !

وحتى الآن ما زالت أحدث قواميس اللغة العبرية تعتمد على المعجمات التى وضعها اليهودى الروسى «اليعازر بن يهودا» فى أوائل القرن العشرين أكثر مما تعتمد على اللغة العبرية الأصلية التى أخذت فى الاندثار بعد كارثة استيلاء الرومان على القدس عام ٧٠ ميلادية ، وبدء تشتيت اليهود فى مختلف أرجاء المعمورة ![1]

(١) تكملة المصدر السابق ..

المستوطنات اليهودية فى الفكر الصهيونى د. حسن فؤاد .